ISSN: 2706-6495

إشكالية الإعجاز القرآني (تأسيس للمفهوم)

The Problematic Idea of the Quranic Miracle- Foundation of Concept

إعداد الدكتور/ غازي جاسم آل مشهد

دكتوراه النحو والصرف وعلم اللغة، جامعة الملك فيصل، المملكة العربية السعودية

Email: ghazi.mashhad@hotmail.com

الملخص

كان وما زال البحث في مسألة الإعجاز القرآني الشغل الشاغل لكثير من الباحثين والمفكرين، فمنذ أن قُدِّمت فكرة (الصرفة) كإعجاز للقرآن، حتى انبرى الكثير الذين رفضوا هذا الرأي ورأوه تسطيحا لفكرة الإعجاز، وبدأ الانطلاق باتجاه اللغة، فقالوا بالإعجاز اللغوي، وتضافرت الجهود في هذا الاتجاه، حتى أصبح الأمر مشهورا عند القاصي والداني من المتعلم وغير المتعلم، فما أن يُذكر الإعجاز القرآني إلا وتتبادر إلى الذهن مسألة الإعجاز اللغوي، وأضافوا إلى ذلك أمورا أخرى كوجود الغيبيات وبعض المسائل العلمية، ويشكل هذا البحث فكرة مختلفة عن هذا الاتجاه، فيستعرض بعض ما قيل من الإعجاز، ويبين الإشكالات التي ترد على أقوالهم وتدحض اتجاههم، ويركز على توضيح الجانب الإعجازي بشكل محدد، وقد جاء البحث بعنوان (إشكالية الإعجاز القرآني-تأسيس للمفهوم)، وجاءت فكرة هذا البحث انطلاقا من مفهوم كلمة (القرآن) التي تعني مجموعة من الآيات المحددة وليس المصحف بأكمله، وتم إثبات هذه الفكرة في بحث لنا بعنوان (أثر التسوير في ضبط المفهوم القرآني-مقاربة سياقية. كلمة (القرآن) أنموذجا)، وقد ركّزتُ على تفسير قوله تعالى :(قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (سورة الإسراء:88)، وأظن البحث سابقا لغيره من البحوث، فهو يوضّح مكان التحدّي في الآية، إذ استعرضنا الآيات التي تعني بكلمة (القرآن) المذكورة في الآية وهذا خلاف ما كان يُذكر من أنه إعجاز لغوي الذي لا يصمد أمام إشكالات كثيرة عرضناها في البحث، وأتمنى أن يكون البحث انعطافة مفيدة لفهم القرآن الكريم وتفسيره، والحمد لله رب العالمين.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز القرآني، تأسيس للمفهوم

ISSN: 2706-6495

The Problematic Idea of the Quranic Miracle- Foundation of Concept

Abstract:

Research regarding the Quranic miracle has been and still is the primary focus of scholars and intellectuals alike. Ever since the concept of "As-Sarfah" was put forth as evidence of the Quranic miracle and was met with dismissal, researchers tried to come up with testimony of it. The journey of proof-seeking of the Quranic miracle started with literary excellence, which many believed in as evidence until it became widespread and known by those educated and uneducated. Many efforts tried to prove the matter, such as concepts regarding science and occultism. This research focuses on proofing the Quranic miracle from a different aspect, denying all the previous evidence trying to prove it. This research, under the name " The Problematic Idea of the Quranic Miracle- Foundation of Concept," concentrates on asserting the Quranic miracle specifically rather than generally, which is what all the previous proof was doing. The idea of this research came from the definition of "Quran," which means a specified collection of verses and not the entire holy book, contrary to what literary excellence tried to prove, and that definition was proven in a past personally conducted research called "The Effect of Encirclement in Controlling the Quranic Concept - A Contextual Approach. The Word (Quran) As an Example." One of the main focuses in this research is interpreting the Quranic verse "If mankind and the jinn gathered in order to produce the like of this Quran, they could not produce the like of it, even if they were to each other assistants." [Al-Israa: 88] I believe that this research is unlike any others, as it focuses on pinpointing the challenge in the verse and the specific meaning of the word "Quran." Lastly, I hope this research becomes a conducive turning point in understanding and interpreting the Quran.

Keywords: Quranic Miracle, Foundation of Concept

1. المقدمة.

اشتغل المهتمون باللغة على البحث عن المعنى فيها، بل هو أغلب ما تدور عليه أبحاثهم، فكان البحث ضمن العديد من المناهج وسيلة لفهم المعنى، فقد كان نصيب اللغة العربية من ذلك كبيرا، وما كان الاعتناء بالبعد المعجمي والتركيبي ثم الدلالي إلا دليلا على ذلك، ثم لحق بذلك ما جاء ضمن الدراسات اللسانية كالمنهج البنيوي والمنهج التداولي، وقد كان وما زال الكثير من الباحثين في اللغة العربية يصبون جهدا كبيرا لمعرفة المعاني التي توجد في اللغة المتمثّلة في النصوص الأدبية كالشعر، ولم يكن نصيب البحث في آيات القرآن الكريم أقل أهمية من النصوص الأخرى، بل كان أعظمها شأنا، فهو كتاب مقدّس عند المسلمين مكتوب باللغة العربية، فشكّل ذلك دافعا قويا للبحث القرآني اللغوي.

انطلق الباحثون في القرآن الكريم من كونه معجزا، وانصب اهتمامهم على الجانب اللغوي، لاسيما إن القرآن الكريم يتكوّن من مادّة لغوية كما أنه جاء في بيئة تضجّ بالشعراء وأصحاب الفصاحة.

وتتمثّل الإشكالية لبحثنا، في أن العديد من البحوث القرآنية تنطلق من القول بإعجازه اللغوي، ويمكن استعراض أبعاد هذه الإشكالية في التساؤلات التالية:

- ما معنى الإعجاز القرآني؟
- وما هي مواطن إعجازه؟
- ما مدى وضوح هذا الإعجاز عند العلماء؟
- ولماذا يتركز الإعجاز في أغلبه على الجانب اللغوي؟

ويحاول هذا البحث معالجة هذه الإشكالية، باستعراض فكرة الإعجاز عند عدة محطات علمية، وسنحاول نقدها، ثم الوقوف عند الإعجاز الذي تحدى الله به الجن الإنس متظاهرين عبر تفسير قوله تعالى :(قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (سورة الإسراء: 88).

2. المنهج:

لقد سلكنا في هذا البحث المنهجَ الوصفيَّ، حيث عملنا على دراسة الحالة، ومن ثم تحليل بعض جوانبها، وما جرى من تطوّر عليها، وبعدها قدمت الفكرة التي استدللت على صحتها.

مفهوم الإعجاز اللغوي:

لم يتم الاتفاق بين الباحثين على بُعد محدد في إعجاز القرآن، فقد بدأ بفكرة الصرفة وتطوّر البحث عندهم على مرّ الزمان بأفكار مختلفة، وإن كان أكثر تركيزهم على الجانب اللغوي، ويمكن تناول ذلك في النقاط التالية:

1- نشأة البحث في الإعجاز القرآني.

يشكّل القرآن الكريم نسيجا بديعا، لا عوج فيه ولا ركاكة، فقد جاء متناسقا جميلا حلو العبارة، جميل البيان، ومع ذلك فلم يكن التسليم بفكرة الإعجاز اللغوي هو الحاصل عند علماء المسلمين العرب الأوائل، فقد برزت مسألة الإعجاز القرآني تحت عنوان (الصرفة) أي "أن الله سبحانه وتعالى صرف الناس عن معارضته وأن يأتوا بمثله، ولولا ذلك لاستطاعوا" (الشريف المرتضى، علي بن الحسين1424ه، ص 11)، وقد رأى الكثير من العلماء في فكرة (الصرفة) تسطيحا لفكرة التحدي التي تتمثل في الإتيان بمثل القرآن أو بآيات منه، فكانت هذه انطلاقة للبحث عن هذا الإعجاز القرآني[1]، وقد اختلفوا في تحديد المقصود منه، هناك من ذهب إلى أن البعد الإعجازي هو بذكر الغيبيات[2]، إلا أن فكرة النظم هي التي غلبت في الأخير[3]، وفي هذا السياق نرى رأي أبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (388ه) حيث يقول: "واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظم التأليف، مضمنا أصح المعاني" (الخطابي، 1956م، ص27)، ثم يشير إلى أمور العقيدة والغيب وغيرهما،

[1] انظر: الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي، الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة)، 1424هـ، ص 12.
[2] انظر: الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن (ضمن كتاب: ثلاث رسائل في الإعجاز اللغوي)، 1956م، ص23.
[3] انظر: عبد الرزاق، حسن إسماعيل، من قضايا البلاغة والنقد عند عبد القاهر الجرجاني، 1981م، ص 17، وانظر: الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي، الموضح عن جهة إعجاز القرآن (الصرفة)، 1424هـ، ص 12.

حتى يقول: (ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله أو مناقضته في شكله" (الخطابي، 1956م، ص28)، فقد تناول مسألة الإعجاز اللغوي على أنها هي التحدّي الحقيقي.

وقد واصل علماء اللغة والبلاغة إثبات هذه الفكرة، وزاد تعميقها، أن الباحثين ينطلقون من أفضلية اللغة العربية على باقي اللغات في العالم، فهم يرون ذلك، وأنها ازدادت شرفا بنزول القرآن بها، ولذا يرون أنه لا يفهم القرآن إلا من كان ذا حظ في فهم اللغة العربية وفنونها، وفي هذا السياق يقول ابن قتيبة:" وإنما يعرف فضل القرآن من كثر نظره، واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمّة أوتيت من العارضة، والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب" (ابن قتيبة الدينوري، أبي محمد عبدالله، 2002م، ص17)[4]، وفي قوله إشارة إلى أن ما في اللغة العربية من مزية، لا توجد في اللغات الأخرى، ومن هنا تكمن مسألة الإعجاز اللغوي عن أصحاب هذا التوجه وهم أغلبية الدارسين للغة العربية وفنونها إن لم يكن جميعهم.

2- الإعجاز اللغوي عند ابن قتيبة ت 276ه:

قد أشار ابن قتيبة إلى البعد الإعجازي اللغوي للقرآن الكريم بقوله: "وقطع منه بمعجز التّأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النّظم عن حيل المتكلّفين" (ابن قتيبة الدينوري، أبي محمد عبدالله، 2002م، ص11)، وقد ناقش من ردوا هذا الرأي، بوجود اختلاف القراءات، حيث عنوا أن الكلمة الواحدة قد تُقرأ بأكثر من لغة، فقال: "وليس يوجد في كتاب الله حرف قرئ على سبعة أوجه ـ يصح، فيما أعلم. وإنما تأويل قوله، صلى الله عليه وآله وسلم: «نزل القرآن على سبعة أحرف»: على سبعة أوجه من اللغات متفرّقة في القرآن" (ابن قتيبة الدينوري، أبي محمد عبدالله، 2002م، ص30)، ويمكن التعليق على قوله، بأن هذا ليس موضع إجماع، وهي وجهة نظر تخالف الكثير من الشواهد، فقد جاء عن القرّاء اختلافهم في القراءات في آية واحدة، وفيها قد يتبدّل حرف من الحروف في الكلمة نفسها، ومثاله كلمة (الصراط) في الآيتين السادسة والسابعة من سورة الفاتحة، حيث قرئت (السراط)[5]، أو يكون حرف في كلمة ما ولا يوجد في الكلمة نفسها عندما تكون في قراءة أخرى، ومثال ذلك كلمة (مالك)، حيث قرئت من دون الألف فتكون (ملك)[6]، أو قد توجد كلمة في آية ولا توجد هذه الكلمة في الآية نفسها ضمن قراءة أخرى ومثال ذلك ما جاء في سورة الحديد في رواية حفص عن عاصم، حيث تقول الآية:(ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (24)، بينما في رواية ورش لقراءة نافع تقول الآية:(ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ (23)، فنلاحظ عدم وجود الضمير (هو) في رواية ورش.

وبهذا ينتفي قول ابن قتيبة لما ترد عليه من إشكالات، ويمكن الخروج من هذه المشكلة بالتعرّف على موضع الإعجاز القرآني، وبداية ذلك معرفة أن البعد اللغوي ليس هو المقصود من الإعجاز مع ما في القرآن من بيان وإبداع حيث لا نقص فيه ولا عيب، وبعد نفي كون الإعجاز لغويا، تنتفي بعض الإشكالات التي ترد على بعض المباحث القرآنية ومنها تعدد القراءات، ومنها أن القرآن نزل بلغات العرب، وما يكون فيها من اختلاف نحوي، وقد استعرض ابن قتيبة بعض الاختلاف النحوي، ومن ذلك قوله:" وحديث عثمان رضي الله عنه: أرى فيه لحنا ـ فقد تكلم النحويون في هذه الحروف، واعتلوا لكل حرف منها، واستشهدوا الشعر:

[4] وانظر: شيخون، محمود السيد، الإعجاز في نظم القرآن، 1978م، من ص 7 إلى ص 13.
[5] انظر: شرف، جمال الدين محمد، القراءات العشر المتواترة من طريق طيبة النشر، 2012م، ص 1.
[6] انظر: المصدر نفسه، ص 1.

فقالوا: في قوله سبحانه: (إِنْ هذانِ لَساحِرانِ) [طه: 63] وهي لغة بلحارث بن كعب يقولون: مررت برجلان، وقبضت منه درهمان، وجلست بين يداه، وركبت علاه" (ابن قتيبة الدينوري، أبي محمد عبد الله، 2002م، ص30)، فيعود التفصيل في هذه الإشكالات بسبب الادعاء بأنّ إعجاز القرآن لغوي، وتنتفي الحاجة لهذا التفصيل من الإشكالات عندما ينتفي هذا الادعاء.

3- الإعجاز عند الباقلاني ت 403ه.

ذكر الباقلاني أن وجوه الإعجاز ثلاثة، وهي:

الأول: تضمنه الإخبار عن الغيوب.

الثاني: أن النبي (ص) جاء بالقرآن وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب كما أنه لا يعلم تلك القصص التي كانت في كتب المتقدمين من قصص وسير.

الثالث: أنه بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في بلاغته حتى أعجز الجميع عن مجاراته[7].

ويمكن التعليق على مسألة الغيوب، بأنها قد تكون في كتب أخرى مثل كتب التاريخ، كما يمكن أن يُدّعى أن النبي (ص) قد سمع بعض القصص من أهل الكتاب وسطرها في القرآن، وحينها لن تكون معجزا، وأما كون النبي أميّا بمعنى الجهل بالقراءة والكتابة، فقد قيل إن معنى (أمي) هو أنه منتسب إلى أم القرى[8]، وحينها، لا يُستبعد أن يكون عالما بالقراءة والكتابة مثل الكثير حيث إنه يعيش في مجتمع مليء بالشعراء والفصحاء وأهل إبداع لغوي، لا سيما إنه كان من عائلة ذات مكانة مرموقة بين الناس، فلماذا لا يكون هو أحد أبناء تلك البلد الذين تعلموا القراءة والكتابة، فيكون مثلهم، ومن ناحية ثانية، فإن وصف المجتمع بـ (الأميين)، يناسب أن يكون راجعا إلى أم القرى، ولا يناسب أن يكون وصفه بالأميّة التي تعني الجهل بالقراءة والكتابة؛ لأنّه قد أُشتهر بالنخبة العالمة باللغة، فهناك صنّع الأمثال، ومنتجو الشعر، فضلا عن وجود التوراة والإنجيل، وإذا كان المجتمع يعجّ بمثل هذه المعرفة، فلا يناسب أن يوصف بالأمية، ثم يمكن ملاحظة كون النبي محمد (ص) يتعامل بالشكل الطبيعي مع الناس، ومن هنا يكون تعليمه الكتاب لهؤلاء الأميين نابعا من معرفة للقراءة والكتابة، حيث يملي عليهم المصحف، ويشرف عليهم في الكتابة، ويعلمهم القيم والمبادئ والشريعة، ومع ذلك، فلو قلنا بأن النبي (ص) أمي، بمعنى لا يقرأ ولا يكتب، فليس ذلك من الإعجاز الممتد إلى يومنا، لا سيما إن الأمة لم تجمع على معنى الأمية، ثم قد يصادف أن يكون شاعر وله باع في الأدب، ولكنه لا يقرأ ولا يكتب فهل يكون ذلك معجزةً له؟!

وأما الوجه المتعلّق بالإعجاز اللغوي، فيمكن القول بأن التركيز على هذا الجانب، يحجم شأن الإعجاز القرآني؛ إذ سيكون مقتصرا على زمن وأناس محددين، كما أن القرآن يغاير ما برع فيه العرب من الشعر مثلا، وكان الأقوى أن يكون القرآن مثل الشعر بحيث يعجز عن إتيانه أعظم شعراؤهم، كما قيل عن معجزة عيسى أنها في شفاء ما لم يستطع أولئك الأطباء، وكما قيل عن معجزة موسى حين حارب السحرة بما يشبه سحرهم، فلو كان الإعجاز لغويا، لكان شبيها بالشعر الذي برع فيه أولئك الشعراء، فيكون متفوقا عليهم فيه، ويبهرهم بحيث لا يستطيعون مجاراته.

[7] انظر تفصيل ذلك، الباقلاني، أبي بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، 1954م، ص 48 إلى 71.
[8] انظر: الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، 2001م، ج5، ص 306.

4- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن الكريم للرُّماني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني.

أولا: كتاب بيان إعجاز القرآن للخطابي (388ه).

استدل الخطابي على بطلان القول بـ (الصرفة)، عبر تحليله لقوله تعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (سورة الإسراء:88)، فذكر أن الآية تشير "إلى أمر طريقه التكلّف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد. والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها، والله أعلم" (الخطابي، 1965م، ص23)، كما أنه تعرض للرأي القائل بأن الإعجاز فيما يتضمنه من أخبار الغيب، وقال إن هذا نوع من إعجازه، "ولكنه ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها" (الخطابي، 1965، ص 23)، ثم تطرّق إلى القول بأن الإعجاز من جهة البلاغة، وأن أكثر العلماء في هذا الاتجاه، وصار من بعدهم يسلمون للفكرة تقليدا لمن سبقهم من دون تمكنهم من تلمُّس مكان هذا الإعجاز، فإذا سئلوا عن في ذلك، فإنهم يقولون لا يمكن تحديده، وإنما يمكن أن يلاحظه العالمون به عند سماعه[9]، وقد أشكل على هذا الرأي، واعتبر جواب أولئك نوعا من الإبهام، وذكر أنه لابد من سبب يكون هو المؤثر في النفوس[10]، ويشير (الخطابي) في موضوع الإعجاز، إلى أنه لا يمكن للبشر الإتيان بمثل القرآن لعدة أمور : "منها أن علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها التي هي ظروف المعاني والحوامل لها، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ... وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم. وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه...فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظم التأليف مضمنا أصح المعاني" (الخطابي، 1965، ص ص26و 27)، ونلاحظ أن (الخطابي) قد أشكل على أولئك الذين يقولون بالإعجاز البلاغي دون تحديده، وبقي متمسكا بهذا القول، إلا أنه حاول رسم صورة لهذا الإعجاز، ويبدو أن هذا الرأي لا يخرج عن إطار من سبقه إلا بذكر بعض التفصيل، الذي يعني انسجام اللفظ والمعنى في انتظام العبارة، ويؤخذ عليه، أنّ لا دليل من القرآن على أن المراد هو هذا الإعجاز البلاغي، وإن كان القرآن ذا عبارة محكمة وعذبة، كما أن الادعاء بهذا النوع من التحدّي، يجعل العرب هم الفئة الوحيدة المستهدفة القابلة للتحدي، وهذا يتنافى مع كون القرآن معجزة خالدة عامة، لأن أغلب البشر لا يعرفون اللغة العربية، ولا يقدرون على فهمها، بل حتى إن المتخصصين لم يستوعبوا الجانب الإعجازي حتى لو أكثروا الكلام فيه، ولذا لا يمكن أن يدلّوا الآخرين عليه، وإذا كان أولئك كذلك، فما بال الآخرين، فضلا أن هذا الادعاء، فيه تحجيم لمستوى التحدي الذي أطلقه القرآن على الإنس والجن متظاهرين.

ثانيا: النكت في إعجاز القرآن. الرماني (386ه).

ذكر الرماني وجوه إعجاز القرآن وأنها على سبع جهات، وهي " ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، والتحدّي للكافة، والصِّرفة، والبلاغة، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة، ونقض العادة، وقياسه بكل معجزة" (الرماني، 1965م، ص75)، ويلاحظ على ما ذكره بأن لا دليل واضح من القرآن على أن هذه الوجوه هي المرادة من الإعجاز، وإنما هو قول بعض السابقين له واجتهاد منه في بعض ما قال، ولم نجد دليلا قاطعا على ما ذهب إليه، بل تؤخذ عليه عدّة أمور ومنها:

[9] انظر: الخطابي، أبو سليمان حمد بن محمد، بيان إعجاز القرآن (ضمن كتاب: ثلاث رسائل في الإعجاز اللغوي)، 1956م، ص 24.
[10] انظر: المصدر نفسه، ص 24 ، ص 25)

أ- أما قوله ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة، فهو قول غريب، لا يناسب أن يعرض في مقام التحدي والإعجاز، فكيف يكون ترك المعارضة إعجازا؟ ففي ذلك قد يُفهم أن هناك يدا خفية منعت المعارضة أو التفكير فيها، وهذا مجرد تصوّر لا دليل عليه.

ب- قوله بـ (الصرفة)، وهو قول سُذِّج من قبل بعض العلماء، حيث لم يروه منسجما مع التحدي والإعجاز، فكيف يتحدّى الله عباده في الإتيان بمثل القرآن ثم يصرف قدرتهم عن ذلك؟ وكان يفترض أن تكون آليات التحدّي متوفرة عند المتحدَّى.

ت- وأما الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلية، فالمتوفر من ذلك في القرآن قليل، وأما إذا هناك ما لم يقع بعد، فلا يمكن الاستدلال عليه، حيث يمكن لأي أحد أن يخبر أن هناك شيئا قد يقع بعد ألف سنة، فكيف يكون هذا محل استدلال؟!

ث- وأما موضوع البلاغة، فذكر أنها "على ثلاث طبقات: منها ما هو أعلى طبقة، ومنها ما هو أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة...فما كان في أعلاها طبقة فهو معجز، وهو بلاغة القرآن [وعرّف معنى البلاغة بقوله] وإنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، فأعلاها طبقة في الحسن بلاغة القرآن" (الرماني، 1965م، ص 75 و ص 76)، ويُلاحظ على الرماني أنه ركّز على مسألة الإعجاز البلاغي، وكأنه هو المرتكز في الإعجاز، فيكون قد سار على طريقة من قال بذلك، وقد اختلف عن كثير ممن سبقوه بأن قسّم البلاغة إلى ثلاث طبقات وأن أعلاها هو محط الإعجاز، ويبقى الإشكال قائما، فلا دليل واضح على أن الجانب البلاغي هو جانب الإعجاز.

ثالثا: الرسالة الشافية في الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (471ه).

تقتصر نظرة الجرجاني في مسألة الإعجاز القرآني، على الجانب البلاغي، وهو يرى أن العرب السابقين هم المثل الأعلى في فهم فنون البلاغة، وقد عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن، فكيف يكون للمتأخرين أن يأتوا بما لم يأت به المتقدمون العرب من أهل الفصاحة والبلاغة[11]. ثم يشير إلى أن سبب عجز أهل اللغة عن الإتيان بمثل القرآن، هو إمكاناتهم الخاصة، فلربما يبرع الرجل في جانب شعري فيكون " في المديح أشعر منه في المراثي، وفي الغزل واللهو والصيد أنفذ منه في الحكم والآداب، وتراه يستطيع في الأوصاف والتشبيهات مالا يستطيع مثله في سائر المعني...وإذا كان كذلك، فلعل العجز الذي ظهر فيهم عن معارضة القرآن لم يظهر لا لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم، ولكن لأنهم لا يستطيعونه في مثل معاني القرآن" (الجرجاني، 1965م، ص138)، ويرد على كلام الجرجاني، بأنه إن كان الرجل يبرع في جانب ويقصر عنه في جانب آخر، فيمكن تجاوز ذلك باجتماع العرب البارعين في اللغة، فيكمل كل شخص ما نقص عند الآخر، وهو أمر ممكن، بل يمكن أن نضيف إلى أنّ التحدّي يشمل الجن، فإن كان القصور لغويا، فيمكن للجن أن يكونوا متعاونين مع الإنس، إضافة إلى أن المتخصصين في اللغة، يمكنهم أن يتفقوا على نص ما، ويستمروا في التعديل حتى يكمل النص بشكل متكامل، ولكن هذه المسألة لم تكن مطروحة لا سيما منذ بداية نزول القرآن، ويبقى ما تم ذكره من قصص تاريخية التي تشير إلى دخول بعضهم في الإسلام لمجرد سماع آية أو بضعة آيات، تحتاج إلى إثبات، ومن ثم لا يناسب أن نعتمد فكرة إعجاز بالقرآن الذي هو قطعي الصدور على أحداث تاريخية ظنية الصدور، باعتماد معطيات قد لا تكون صحيحة أصلا، فضلا عن أنها -فيما لو ثبت وقوعها- تحتاج إلى تحليل دقيق لنرى إن كانت تثبت أن الإعجاز لغوي.

[11] انظر : الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، الرسالة الشافية، 1956م، ص 117 وص 118.

5- نظرية النظم عند الجرجاني.

لم يكن الإمام الجرجاني إلا واحدا ممن كتبوا في مسألة الإعجاز القرآني، فـ "قد كتب كثيرون قبله في إعجاز القرآن كالجاحظ والواسطيّ وأبي عبيدة والرماني والباقلاني...إلا أنه نقدهم ، وجرّح آراءهم، وعرض نظريته في النظم" (الجرجاني، 1997م، ص9)، وقد ركز في كتابه (دلائل الإعجاز) على البُعد النظمي للعبارة، وركّز في كتابه (أسرار البلاغة) على تأثير القرآن في النفوس عبر الصور البيانيّة[12]، وإذا كان من سبقه قد قصّروا بضرب الأمثلة لتوضيح الفكرة، فإن عنايته بذلك بتكثيف الأمثلة وتوضيح فكرة النظم ودفاعه عنها بشكل موسّع، جعله موسوما بصاحب نظرية النظم، وهو يذكر أنه "ينبغي أن يُنظر إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخبارا وأمرا ونهيا واستخبارا وتعجبا، وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بضم كلمة إلى كلمة" (الجرجاني، 1997م، ص52)، ثم إنه يركز على التفاضل بين الكلمات، فينبغي توخي الدقة في اختيار الكلمة المناسبة في مكانها المناسب[13]، ويضيف إلى ذلك، أهمية علم النحو، ومن هنا تتشكل نظرية النظم عنده ويرى الإعجاز القرآني في ذلك، حيث يقول: " واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت؛ فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه" (الجرجاني، 1997م، ص77)، فالجرجاني ينطلق من نظرته إلى الإعجاز من الجانب اللغوي، ويذكر أن الغاية من ذلك هو المعنى، فيقول مثلا : " واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر، ويغمض المسلك في توخّي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثان منها بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا" (الجرجاني، 1997م، ص87)، فهو يرى أن الإعجاز يتشكل في روعة التعبير ودقته وأداء المعنى المطلوب دون أي خلل.

وتؤخذ على نظريته أمور عديدة، ومنها إن ما قدّمه الجرجاني من تصوير للإعجاز القرآني، لم يُعر أهمية من قبل العلماء وخاصة ما كان في كتابيه (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة)[14]، ثم إن القول بالإعجاز اللغوي المتمثل في نظرية النظم، كغيره من الأقوال، يحجِّم مستوى الإعجاز؛ إذ سيكون مقصورا على فئة قليلة من الناس، وهم العرب، بل المتخصصون في دراسة اللغة من نحو وبلاغة، ويبقى ما ذكره الجرجاني مجرد ادعاء لا ينسجم مع التحدي الذي ذكره الله سبحانه في قوله تعالى: :(قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (سورة الإسراء:88)، فنلاحظ أن التحدي في الآية ليس مقصورا على العرب، بل يشمل جميع البشر، إضافة إلى الجن مجتمعين معهم، وهذا لا ينسجم مع كون الإعجاز لغويا، فكيف يتحدى الله الذين لا يعرفون أبجديات اللغة العربية بأن يأتوا بكتاب عربي يشكل قمة البلاغة؟!

6- مناقشة فكرة الإعجاز اللغوي.

تبرز كثير من الإشكالات التي تضعف القول بأن التحدّي والإعجاز مرتبط بالبعد اللغوي، ومن ذلك:

أ- لو أراد أحد من الإنس أن نُري الإعجاز اللغوي، فيتوجب عليه أن يتعلم اللغة العربية، ثم يدرس فنونها لسنوات، ثم يطبق ما درسه على القرآن، وهذا أمر لا يسيغه الكثير من البشر، بل هو أمر غير منطقي، فمن ذا الذي يظل سنوات يتعلم لغة غير لغته حتى يرى ما يُقال له عن معجزة لغوية؟ ويُفترض أن يكون التحدي في حينه لا أن يكون بعد سنوات،

[12] انظر: عبد الرزاق، حسن إسماعيل، من قضايا البلاغة والنقد عند عبد القاهر الجرجاني، 1981م، ص 22.
[13] انظر: الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، 1997م، ص 52.
[14] انظر: مطلوب، أحمد، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، 1973م، ص 28.

وعندما نزل قوله تعالى: :(قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ ...)، يفترض أن يقوم التحدي مباشرة، وهو متوجه لجميع الإنس والجن، مع اختلاف لغاتهم، وثقافاتهم، وأعمارهم، ولا يلاحظ في الآية الكريمة افتراض كونهم عربا بحيث يجب عليهم تعلم اللغة العربية لكي يتم التحدّي، ولذا لا يكون التحدي منطقيا إلا إذا كان الأمر متاحا عند المتحدَّى ليجرّب، فلا يناسب أن يكون التحدّي الإتيان بنص من لغة أجنبية لشخص لا يعرف شيئا عن تلك اللغة، حيث يتطلّب الأمر أن يتقن تلك اللغة الأجنبية حتى يبدأ بالتحدّي، وإذا كان هذا غير منطقي إذا كان متعلّقا ببضعة أشخاص، فكيف إذا كان الأمر متعلقا بمليارات من الإنس والجن، وهذا يعني أن التحدّي يكمن في شيء آخر، بحيث يرى الطرف المتحدَّى أن المجال متاح له منذ أن بدأت الآية بالتحدّي، أي في زمن النبي محمد (ص)، فقد كانت الدعوة لهذا الأمر في تلك اللحظة أن يجتمع الإنس مع الجن متعاونين لقبول التحدّي، ولا يناسب أن يقول النبي (ص) أن التحدّي يتطلّب فهم اللغة العربية، وأنّ على جميع البشر من غير العرب، أن يتعلموا العربية حتى يبدأ التحدّي، وهذا مالم يثبت حدوثه، ولذا فإن الشكل المناسب للتحدّي أن يكون الإنس والجن قادرين على الاجتماع مع بعضهم، ويكفيهم أن يفهموا لبعضهم من أجل المحاولة للفوز بهذا التحدّي، وتصبح الفرصة أمامهم لتثبت قدرتهم أمامه، وحينها، إن عجزوا، فسيكون انتصارا للقرآن.

ب- كما يرد على القول بأن الإعجاز لغوي، وجود آيات غير واضحة عند المفسرين المتمرسين في البحث اللغوي، حيث التفاسير المختلفة إلى حد التضاد فيما بينها، فكيف يكون إعجازا وهو غير مفهوم.

ت- ويمكن أن نضيف إلى ذلك، أن الذي أنزل القرآن على محمد (ص) هو الذي أنزل التوراة على موسى (ع)، وأنزل الإنجيل على عيسى (ع)، فإذا كانت المعجزة في القرآن هي البلاغة، فلا شك أنها موجودة في التوراة والإنجيل أيضا، فهل يمكن القول بأنها ليست معجزة لغوية بسبب ركاكة الآيات المنزلة فيها مثلا؟! فالمصدر واحد، ولا شك أن الناس لم يكونوا قادرين على أن يأتوا بمثل التوراة والإنجيل أيضا، ويظل الفرق بين هذه الكتب الثلاثة، أن القرآن هو الناسخ لغيره من الكتب السماوية، فمن أنزل التوراة والإنجيل، أمرَ بالتخلي عنهما والتمسك بالقرآن، وفي هذا الإطار لم نسمع أن المعجزة الموسوية والعيساوية مرتبطة باللغة، وهي إشكالية حقيقية؛ إذ لا يمكن القول بأن تلك الكتب السماوية، جاءت بأسلوب عادي وأن البلاغة والإعجاز للقرآن فحسب.

ث- ويمكن أن نلاحظ أن كون التحدي لغويا عربيا، يحجّم المعجزة القرآنية التي يُفترض أن تكون عالمية وصالحة لكل زمان ومكان ولجميع الإنس والجن؛ لإن الاقتصار على البعد اللغوي سيجعل التحدّي والإعجاز خاصّا بفئة من الناس وهم المتمكنون من اللغة وفنونها لا سيما في التخصصين النحوي والبلاغي، كما أنه سيكون خاصّا بفترة زمنية وهي فترة وجود أولئك الفطاحل من البلغاء، وحينها ستكون المعجزة القرآنية محدودة، ولا يمكن -حينها- الطلب من الناس قبول التحدّي، ومع افتراض اقتصار الإعجاز القرآني اللغوي على فئة من البشر وهم المتخصصون في اللغة، فإننا لا نجد الانبهار من أولئك اللغويين بإعجاز قرآني، ولا نرى مثل تلك القصص التاريخية التي تقول أن (فلانا) سمع آية فرأى الإعجاز مباشرة ودخل إلى الإسلام، ويبدو أن تلك القصص ليس واقعية، وأنه لا يمكن اعتمادها شواهد على إعجاز القرآن إلّا بعد التحقق من وقوعها من ناحية، ثم التعرّف على تفاصيل الموقف وجوانب الإعجاز الذي أبهرت ذلك السامع للقرآن، فالواقع يضعف من صحة وجود مثل تلك القصص، فما نجده، هو أن من المتخصصين في اللغة من غير المسلمين، قد يُقرأ القرآن كاملا أمامهم دون أن يتأثروا بسبب لغوي، وإن قيل أن أولئك السابقين كانوا متمكنين من البلاغة بشكل لا يفوقهم أحد، فإن ذلك يؤزم الإشكالية أكثر، حيث لن يكون الإعجاز إلا وقت نزوله لأناس مؤهلين لغويا، وقت انتهى ذلك الوقت.

ج- ويمكن القول أيضا إن اعتماد فكرة الإعجاز اللغوي، يجعل المصحفَ الشريفَ كتابا للدرس اللغوي، أو يركز اهتمامه باللغة، وعلى كل جيل مسلم أن يدرسوه لاستخراج فنونه اللغوية أكثر من أي جانب آخر؛ لأنّه السبيل لإظهار عظمة القرآن، وهذا يخالف الهدف الذي جاء من أجله كل الأنبياء الذين جاؤوا لنشر القيم ومكارم الأخلاق والأحكام الشرعية مع اختلاف لغاتهم.

7- تأسيس للإعجاز القرآني وتأصيله.

يمكن البدء باستعراض نقطة التحدّي والإعجاز في قوله تعالى: :(قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرا) (سورة الإسراء:88)، انطلاقا من مفهوم كلمة (القرآن)[15]، التي قد تعني آيات محددة في السورة التي ذُكرت فيها هذه الكلمة وليس المصحف كاملا، ومثل ذلك أن يُقال نزل في المؤمنين قرآن، أو نزل في المنافقين قرآن، أو نزل في فلان قرآن، أو نزل في الصلاة قرآن ، أو نزل في شهر رمضان قرآن، أو نزل في بر الوالدين قرآن، وهكذا، إذ يعني أن هناك آية أو مجموعة من الآيات نزلت تتحدّث عن أولئك الأشخاص، أو تتحدث عن تلك والعبادات والقيم، تسمَّى قرآنا، ومن هنا فإن كلمة القرآن في قوله تعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ)، لا تعني المصحف كاملا، إنما تعني بموضوع محدد، وليست متناثرة أو عامة مبهمة غير معروفة في المصحف، إذ يبدأ تحديدها من خلال السورة نفسها التي وردت فيها هذه الآية، مما يعني أن القرآن الذي جاء متحديا، هو تلك القيم التي جاءت في السورة (الإسراء)، وهذه القيم هي قوله تعالى: (وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلا كَرِيما (23) وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرا (24) رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورا (25) وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورا (27) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلا مَّيْسُورا (28) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوما مَّحْسُورًا (29) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرا (30) وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرا (31) وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلا (32) وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوما فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورا (33) وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولا (34) وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْر وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا (35) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولا (36) وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولا (37) كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوها (38) ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُوما مَّدْحُورًا (39).

وإذا أمعنا النظر في قوله تعالى: (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ ...)، سنلاحظ أن الله سبحانه لم يجعل التحدي بأن يأتوا بأفضل منه، بل اقتصر على الإتيان بمثله، وهذا يصعّب الأمر على المُتحدَّى، فإذا لم يستطع أن يأتي بالمثل، فكيف له أن يأتي بالأفضل؟!

ذكر الله سبحانه أن هذه الآيات هي القرآن في هذه السورة، وإذا كان التحدي يعني بالإتيان بنظام قيمي ينشر الرحمة بين الناس، فإن التحدي يزداد صعوبة على كل مخلوق؛ حيث إن هذه القيم ليست حديثة الصياغة،

[15] انظر: بحثنا بعنوان: أثر التسوير في ضبط المفهوم القرآني (مقاربة سياقية كلمة "القرآن" أنموذجا)، 2023م، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي، الإصدار الثالث والخمسون، الرابط: https://bit.ly/46nlahh/.

ISSN: 2706-6495

بل كانت على زمن الأنبياء السابقين من آدم عليه السلام وحتى النبي محمد (ص)، إذ كانت الكتب السابقة للقرآن تحمل القيم والمبادئ التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور، وتقدم لهم نظاما قيميا وأخلاقيا، يحقق السعادة بين الناس، وهذا معنى قول النبي (ص) : "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق" (الألباني، محمد ناصر الدين ، 1988م،ج1، ص 464)، حيث كان الناس يعيشون بأخلاق جاء بها الأنبياء السابقون، وكانت مسطَّرة في الكتب النازلة عليهم كالتوراة والإنجيل، وهذا المصحف الذي نزل على محمد (ص) هو إتمام لما كان من أخلاق قبله، وقد تشكل التحدي في الإتيان بمثل هذه القيم، ومازال التحدي قائما؛ إذ لن يستطيع أحد أن يأتي بمثلها، ونلاحظ أن هذا التحدي لا يتجاوز أحدا بسبب لغته، فالجميع يمكنه أن يتقدّم متحديا، دون حاجة إلى أن يتعلم اللغة العربية أو غيرها، ويستطيع جميع الإنس والجن بمختلف لغاتهم أن يجربوا هذا التحدّي، ونرى أن الأهمية العظمى للقرآن تتمثّل في أنّ الموضوع المطروح للتحدّي، يمسُّ حياة الناس مباشرة، فهو يدفع باتجاه مكارم الأخلاق، والعدالة والرحمة، وليس إشغال الناس بالقرآن عبر بحث لغوي جمالي شكلي لا يمت إلى واقعهم بشكل مباشر، وبهذا تنتفي جميع الإشكالات التي وردت على الادعاء بأن الإعجاز لغوي، فمثلا، يكفي أن يُقال لأي أعجمي أن التحدّي يتمثل في تلك القيم التي في سورة الإسراء، ومنها بر الوالدين، فهل لديك مثل ذلك يصلح أن يكون بديلا عنه.

إن هذه القيم -محلّ التحدّي- المشكّلة للقرآن التي ذكرت في السورة هي:

أ- بر الوالدين.

ب- إتيان ذي القربى حقه.

ت- مساعدة المساكين وابن السبيل بقدر المستطاع وإن لم تكن استطاعة، فليكن لهم الكلام الميسور.

ث- عدم قتل الأولاد خوف الفقر.

ج- اجتناب الزنا.

ح- عدم قتل النفس المحترمة.

خ- عدم أخذ مال اليتيم بالباطل.

د- إيفاء الكيل.

ذ- عدم تبني أفكار ملؤها الجهل كالظن والترخيص.

ر- التواضع.

ولو تأملنا - مثلا - في موضوع (بر الوالدين) في إطار القيم القرآنية، لرأينا اطمئنانا عاما عند الآباء المسلمين، حيث يرون أنهم سيكونون في ظل رعاية أبنائهم عندما يشيخون، بل إن الأبناء سوف يتسابقون لرعايتهما ويطلبون رضاهما الذي هو من رضا الله، وقد أصبحت هذه القيمة من المسلمات والبديهيات في المجتمعات الإسلامية، وهذا ما تفتقر إليه الكثير من المجتمعات التي تفتقد مثل هذا القرآن، أي هذه القيم في هذه الآيات من سورة الإسراء.

ولا يقف هذا القرآن عند حدود البر بالوالدين، فهو يأمر برعاية حقوق ذوي القربى، بل يدعو إلى أبعد من ذلك، فهناك المسكين وابن السبيل، وهم فئات قد تخرج عن إطار الأسرة، ولكنها ضمن المجتمع، فقد نظر القرآن إلى كل فرد من المجتمع ولم يقتصر على العائلة الصغيرة، وجعل على الجميع مسؤولية تجاه الضعفاء من الناس، فإذا لم يمكن لبعضهم أن يعين المحتاجين بالمال، فقد جعل الله له مخرجا آخر وهو الكلام الميسور.

كما تعالج آيات القرآن مشكلة وقع فيها بعض البشر، وهي أن هناك من قد يقتل ابنه بسبب خوف الفقر، ومن صور هذا القتل الإجهاض، والقرآن ينبه إلى خطأ هذا التبرير، ويعلل بأنّ هذا الإنسان الخائف على أولاده من الفقر، لم يكن هو الذي يرزق نفسه، فقد كان فقيرا وأصبح عنده من المال ما يعيش به، وأن الذي أعطاه المال، هو الذي سيعطي أولاده، ومن سبل ذلك أن الله أرسى مبدأ إعطاء ذوي القربى حقهم، ومبدأ مساعدة المساكين، حتى الغريب المسافر (ابن السبيل) فإن له حقا على الناس، وهذا ما أرساه القرآن الكريم في نفوس المسلمين.

ويشكل العفاف صورة أخرى من قيم هذا القرآن، فهو يحرم الزنا، ويقرر بأنه كان فاحشة وساء سبيلا، وقد لاحظ الناس تفشي بعض الأمراض من هذه الفاحشة، كما أن الأبناء الذين تنتجهم هذه الفاحشة، يصبحون من دون أهل يعيشون في حضنهم فيلجؤون إليهم عند حاجاتهم وآمالهم وآلامهم، فيكونون عرضة لأن يصبحوا ناقمين على الناس بسبب العُقَد التي ترعرعوا معها، حيث لا يعرفون أمهاتهم أو أباءهم أو أهلهم كبقية الأطفال الآخرين.

ويفرض القرآن أيضا قانونا يحمي فيه الناس من بعضهم، فينهى عن قتل النفس المحترمة، كما أنه يضع علاجا في حال وقعت جريمة قتل النفس، وهو أن يكون لولي الدم سلطان، فله أن يطلب القصاص، وله أن يعفو، وفرض على هذا الولي ألا يسرف في القتل بأن يعمد إلى الثأر، فتكثر الضحايا.

وتعني الآيات الكريمة بفئة من فئات المجتمع التي تتصف بالضعف، وهي الأيتام، فينبه على مسألة مراعاة حقها، والاستمرار بمراعاتها حتى تستطيع الوقوف على قدميها وتعتمد على نفسها، واعتبر القرآن الأمر مقدسا وأنه عهد على الجميع مراعاته والوفاء به.

ثم يفرض على التجار الوفاء بالكيل، والعدل في الميزان، مما يعني رفض التلاعب بأرزاق الناس، وهذا أمر حيوي مرتبط بحياة الناس، ويؤثر على الجميع لاسيما الفقراء والفئات الضعيفة اقتصاديا في المجتمع.

ثم إن القرآن يعمد إلى مسألة مؤثرة في الحياة بشكل كبير جدا، ألا وهي اعتماد المعرفة الصحيحة، وبناء كل شيء في حياتنا على العلم، مما يعني أن اعتماد الظنون والاحتمالات أمر غير مجد، وقد وفّر الله لعباده وسائل عديدة للوصول للعلم، ألا وهي، السمع، والبصر، والفؤاد، وعلى المرء الإفادة منها وجعلها وسيلة للعلم، لا أن يقتصر على الظن والاحتمال، ولا شك أن مسألة العلم من أعظم المسائل التي يحتاجها الإنسان، وأن غيره لا يغني من الحق شيئا.

ثم يتم ختم هذا القرآن بخُلُق عظيم، وهو التواضع، ويمكن أن نراه في الشخصية التي تبر بوالديها، وترحم ذوي القربى والمساكين وابن السبيل، وتترفع عن التفكير بقتل النفس المحترمة، وكذلك عن الزنا، كما أن المتواضع يرأف بالأيتام، ومن تكون له هذه الصفات، فسيكون وفّاء في مكياله فيما لو كان كيّالا، وفي الأخير، فإن من يملك هذه الصفات، لابد أنه عالم، لأن امتلاكها لا يمكن أن يكون إلا بالعلم، وهو العلم الذي جاء به القرآن حيث إنه يصنع الإنسان صناعة خيرة، فيصل به إلى السعادة.

لقد شكّلت هذه القيم نظاما ينتج التراحم والتلاطف بين الناس، فهي تعمل على إرساء الرحمة بينهم، وعندما يضعف حضورها في المجتمع، سيحل على الناس الكثير من المتاعب، وسيصبحون في دوامة من المشاكل متمثلة في ضياع أساس الأسرة وهما الوالدان، وفي نهب حقوق الناس، بل وقد يُستهان بقتل النفس المحترمة، ثم يكون الثأر هو البديل للنظام، مما يعني انتشار الفوضى.

إذن! يتمثّل التحدّي لقوله تعالى:(قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ...) في الجانب القيمي، فهذا القرآن (أي الآيات التي استعرضناها) يشكل قيما تُرسي الراحة للناس، والرحمة بينهم، وقد كانت من دون هذه القيم تعيش فسادا كبيرا، فكان قتل النفس المحترمة، ونهب

الأموال، والثأر، والتكبر، وعدم احترام أو رحمة الضعيف والفقير، فالمال يُنهب، والغني يتكبر، وظلمات كثيرة، وقد أرسل الله سبحانه رسله لتعليم الناس الحكمة التي تتشكل في هذه القيم؛ لإخراجهم من ظلمات الجهل والتخبط، إلى القيم التي تسعد الناس، وإذا كان ذلك كذلك، فإن التحدّي في الآية (قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ...) يتركز في أنه لو اجتمع الإنس والجن، وتعاونوا على أن يأتوا بمثل هذه القيم، فلن يستطيعوا، وهو تحدٍّ قائم حتى الساعة، فمن أراد إبطال إعجاز هذا القرآن، فليستبعد نظام التعامل مع الوالدين وبقية القيم التي جاء بها القرآن، ثم ليأت بقرآن مثله، أي بقيم مثل هذه القيم التي تبسط الرحمة في العائلة والمجتمع، مع ملاحظة أن هذه القيم كانت موجودة في الكتب السماوية السابقة كالتوراة والإنجيل، ولذا قد نجد بعض المجتمعات غير الإسلامية تأخذ ببعضها، ليس لأنها ابتدعتها، بل لأن هناك أنبياء قد جاؤوا بها من عند الله سبحانه، وهي تتشكل تحت عنوان مكارم الأخلاق، وقد جاء النبي محمد (ص) متمما لها.

8- نقطة التحدي.

يتشكل التحدي المقصود فيما تقدم من قيم، أي فليجتمع من يجتمع من مفكرين وفلاسفة ومؤلفين من الإنس والجن وليجمعوا أمرهم، ولينتجوا قيما مثل هذه القيم، أي فليقدموا بديلا عنها بحيث تكون النتيجة لتطبيقها بين الناس هي انتشار الرحمة بينهم، والسعادة التي ينشدها كل البشر، ولو تفحصنا نتيجة ما قدمته بعض الدول للناس من دساتير كتبها علماؤهم ومفكروهم وفلاسفتهم، لرأينا نتائج سيئة، فمثلا، بالنسبة لمسألة بر الوالدين، نرى افتقار الكثير إليها، وفي أحسن الأحوال يكون آخر مطاف كبار السن إلى دار المسنين، فلا يرون أبناءهم، ولا يعرفون أحفادهم، وأما إذا لم يجدوا دارا للمسنين، فسيكونون من دون مأوى، ولو تصورنا أنّهم يجدون عناية جيدة من الأطباء ويحصلون على وجبات طعام منتظمة، وسكن خاص، فهل يمكن أن نجعل ذلك بديلا عن بر الوالدين؟!

إن بر الوالدين يشكل صورة بديعة تتكون من عطف ومحبة من قبل العائلة للوالدين، فالأبناء _ المتربون على قيم القرآن- يتسابقون على خدمة آبائهم وأمهاتهم، ويطلبون رضاهم في كل آن، ويكون الوالدان مثل الملوك، فالأبناء يخدمونهم، ويقدمون لهم الطعام والشراب، ويرعون صحتهم، ويحيطون بهم، لا سيما إذا اجتمع الأحفاد أيضا يلاعبون أولئك الكبار، فهذا أنموذج عظيم لا يمكن أن يتوفر في دار المسنين، ولا يقتصر الأمر على سعادة الوالدين، بل إن ما يحصل عليه الأبناء والأحفاد من رضا وسعادة لا يمكن الحصول عليه فيما لو كان الآباء والأمهات في دار المسنين، فالتحدي في هذا القرآن، أن يقدِّم الإنس والجن البديل لما جاء فيه من الأحكام والحكمة، بحيث تكون النتيجة سعادة لكل أفراد المجتمع، وما برّ الوالدين إلا واحدا من تلك القيم، فهي مجموعة متكاملة من القيم، التي إذا اجتمعت، مثّلت صورة كاملة للتحدّي على أن يؤتى بمثلها.

ولم تكن فكرة محاولة اكتشاف النظم والقوانين لسعادة البشر بعيدة، فقد كان طموح بعض المتميزين من الناس أن ينظروا للوصول السعادة في جميع جوانب الحياة، ففكروا في القيم التي تشكّل المدينة الفاضلة، وكان على قائمة هؤلاء هم الفلاسفة، حيث أعملوا عقولهم وفكروا كثيرا للوصول إلى الحِكَم التي تأخذ الإنسان للسعادة[16]، ولقد كانت الحضارة اليونانية حاضرة في هذا الأمر، ويبدو أنّ بعض "مؤرخي الفلسفة في الغرب، يطلقون على الفلسفة اليونانية بالمعجزة اليونانية. هذا يعني عندهم أن الحضارة اليونانية بعامة، والفلسفة اليونانية بخاصة، قد أُبدعت إبداعا، دون أن تتأثر بالحضارات السابقة" (المنياوي، أحمد، 2010م، ص 40)، ولكنّ الأمر مبالغ فيه، فكثير "من الفلاسفة اليونان قد تأثروا بالحضارات المصرية والهندية والعراقية القديمة.

[16] انظر: أحمد المنياوي، جمهورية أفلاطون، 2010م، ص 35.

ISSN: 2706-6495

كتاباتهم ونظرياتهم تشهد بذلك" (المنياوي، أحمد، 2010م، ص 40)، ومن أبرز هؤلاء، أفلاطون الذي سافر إلى مصر حيث تأثر بالثقافة والحضارة هناك[17]، بل كان يظهر في بعض عباراته تأثره بالديانات السماوية، فيقول مثلا:

"أيها الناس استمعوا كلامي واشكروا الله على نعمه عليكم واعلموا أن الله تعالى ساوى بين خلقه في مواهب النعم وبذلها لهم كافة ففهموا واعتبروا القول بالصحة. أصبغ الله النعم وهي للعامة أجمعين... قد أعدّ الله لكم ما يحامي عنكم وهو الحكمة والتقوى" (المنياوي، أحمد، 2010م، ص 53)، فكان متأثرا في هذا القول، بما جاءت به الكتب السماوية، وقد كان ممن سعى لرسم الأفكار التي تعتمدها المدينة الفاضلة، حيث كان ذلك الشغل الشاغل لكثير من الفلاسفة[18]، ومع كل جهودهم المبذولة، إلا أنه لم يدع أحد منهم أنه وصل إلى التنظير المتكامل الذي يتّسم بسهولة الطرح، ووضوحه، وإمكانية تطبيقه كما هو حال الأطروحة القرآنية التي يمتدّ تحديها على مرّ الزمن، مع ملاحظة أن بعض الفلاسفة قد جاؤوا بالكثير الجيد، ولكن بعض هذا الكثير -إن لم يكن أغلبه أو كله- كان من تأثير رسالات الأنبياء السابقين لهم.

3. الخاتمة.

كشفنا من خلال البحث عن إشكالية كبيرة عند الباحثين المسلمين بشكل عام وعند العرب بشكل خاص، وتبين مدى الاهتمام بها، ولم تجف الأقلام حتى اللحظة في البحث والكتابة عنها، وما يعمّق المشكلة أكثر، هو أن جلّ الباحثين ركّزوا على البعد اللغوي منذ أن بدأ هذا الاتجاه حتى استمر إلى يومنا هذا، مع أن بعضهم أضاف جوانب أخرى مما سموه بالإعجاز، فقالوا بالإعجاز العلمي، والغيبي.

وقد جاء البحث يشكّل اتجاها مختلفا عما سبق، فهو بحث استعرض الفكرة التي طال عمرها قرونا عديدة، ثم بيّنا الكثير من الإشكالات التي تضعفها وتجعلها غير مناسبة لفكرة الإعجاز، وكان أساس انطلاق هذا البحث من مفهوم كلمة (القرآن) الذي خالفت فيه ما كان عليه السابقون، إذ كانوا يرون أن الكلمة تعني القرآن من الجلد إلى الجلد، مما جعلهم في حيرة؛ إذ تتسع عليهم دائرة البحث، حيث يحاولون الحصول على الإعجاز اللغوي في أي سورة، مع ملاحظة أنه لا يوجد أحد فسّر جميع الآيات أو نصفها أو حتى ربعها بما يظهر الإعجاز ، وقد وضحت أنّ القرآن يعني آيات محددة، فكان بحثنا يحدد مكان التحدّي، ويتجاوز الإشكالات التي واجهت البحوث التي تقول بالإعجاز اللغوي، ويمكن استعراض النتائج لما قدمنا في النقاط التالية:

1- ركّزت البحوث السابقة في إعجاز القرآن الكريم على البعد اللغوي.
2- كان انطلاق الباحثين في مسألة الإعجاز من مفهوم خاطئ لمعنى كلمة القرآن فكانت النتائج غير سليمة.
3- أظهر البحث أن التحدّي في الآية (88) من سورة الإسراء، يعني بالجانب القيمي.
4- يمكن لأي أحد من الإنس والجن محاولة تقديم أنموذج مثل القيم التي جاءت في سورة الإسراء دون الحاجة لتعلّم اللغة العربية.
5- يمكن أن نقارن بين ما قدمته بعض الدساتير في العالم وبين الأفكار التي قدمتها الآيات، حتى نلاحظ عظمة توجيهات القرآن في الأخلاق والحكمة في جوانب الحياة المختلفة.

والحمد لله رب العالمين.

[17] انظر: المصدر نفسه، ص 40.
[18] انظر: المصدر نفسه، ص 9 وص 10 .

ISSN: 2706-6495

4. قائمة المراجع والمصادر:

1.4. المراجع

1- القرآن الكريم.

2- الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح "الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير)، ج1، المكتب الإسلامي، بيروت- لبنان، الطبعة الثالثة، 1988م.

3- الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج5، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2001م.

4- الباقلاني، أبي بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف بمصر، 1954م.

5- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمد التنجي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الثانية، 1997م.

6- الدينوري، أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2002م.

7- الرماني، الخطابي، الجرجاني،1956م، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق وتعليق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، 1956م.

8- شرف، جمال الدين محمد، القراءات العشر المتواترة من طريق طيبة النشر، دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الرابعة، 2012م.

9- الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي، المُوضِح عن جهة إعجاز القرآن (الصَّرفة)، تحقيق: محمد رضا الأنصاري القمي، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد- إيران، 1424ه.

10- عبد الرزاق، حسن إسماعيل، من قضايا البلاغة والنقد عند عبد القاهر الجرجاني، الزيتون- القاهرة، الطبعة الأولى، 1981م.

11- مطلوب، أحمد، عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده، الناشر: وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى، 1973م.

12- المنياوي، أحمد، جمهورية أفلاطون، دار الكتاب العربي للنشر، القاهرة- مصر، الطبعة الأولى، 2010م.

2.4. المواقع الإلكترونية

13- آل مشهد، غازي، أثر التسوير في ضبط المفهوم القرآني- مقاربة سياقية، كلمة القرآن أنموذجا، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي، الإصدار الثالث والخمسون،2023م. الرابط https://bit.ly/46nlahh/

جميع الحقوق محفوظة © 2024، الدكتور/ غازي جاسم آل مشهد، المجلة الأكاديمية للأبحاث والنشر العلمي

(CC BY NC)

Doi: https://doi.org/10.52132/Ajrsp/v5.57.8